

(٤) ابن خلدون في مصر

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمته الى مصر وما وقع له بها، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب اليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب، وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى منذ تألق نجمه وبرز مجده، وشرح له طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك. ولا ريب أن مناوضة في شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والقضاة بالتسليم، فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ الى مسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة. ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً، ثم انصرف واشغل أياما بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتتها وبلغت على قوله اثنتي عشرة كراسة صغيرة ثم قدمها الى تيمورلنك فأمر بترجمتها الى اللغة المغولية (١)

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت التلميم من بطش الفاتح ولكن انتثار احتجاجوا باستمرار القلعة في المقاومة فشدوا عليها الحصار حتى سلمت، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعبث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب، على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة وحدثه تيمورلنك ضمن ما حدث بامر شخص تقدم اليه مدعياً بالخلافة وأنه سليل بني العباس وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته في الخلافة. وقدم ابن خلدون أيضا الى الفاتح هدية هي «مصحف

(١) لم تصل اليها هذه الرسالة التي كتبها ابن خلدون في وصف بلاد المغرب ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مما كتبه في ذلك في تاريخه الكبير في القسم الذي يخصه لتاريخ البربر يمهده بوصف عام في جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر - ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها)

الالهام المصري. والى ان يصل الكتاب الى ذلك سيظل معظم القراء المصريين مقبلين على آداب غيرهم، ولن يقف تيار الأدب الأوروبي الا اذا تسنى للمصريين أن يخلقوا فنا جديدا من فنون الكتابة بواسطة تظهير القصة المصرية في معناها الحقيقي.

محمد الخفيف

ترجمها عن الإنجليزية للرسالة

رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلوة مصر الفاخرة» ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه والتمس المؤرخ منه في هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فاجابه الى طلبه وأصدر الامان

يصف لنا ابن خلدون هذه المحادثات والمقابلات التي وقعت له مع الفاتح التتري، وقد كان فيها يؤدي دور المفاوض والسياسي القديم. ولكن مؤرخا مصرية هو ابن اياس يقدم اليها في ذلك رواية أخرى، فيقول لنا ان الذي قام بمفاوضة تيمورلنك في تسليم دمشق هو القاضي تقي الدين من منلج الحنبلي، وأنه هو الذي ادلى من السور واختاره الزعماء لتلك المهمة، لانه كان يعرف التركية وأنه هر الذي سعى في تسليم المدينة واقتاد وفد القضاة الى الفاتح واستصدر منه الامان وتولى تنفيذ جميع رغائبه في جمع المال والاسلاب (١) ولكن ابن خلدون صريح في روايته في انه هو المفاوض والوسيط في عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وأنه كان يمثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك في روايته. وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه دمشقي مؤرخ تيمورلنك الذي كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت اسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ويصور لنا في عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من احاديث ومناقشات. (٢) على ان صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة اخرى ان يكون ابن مفلح قد اشترك في المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم.

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا اخرى غير ما وفق اليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة، ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعمائه. على انه لم يوفق بل اربى الى تحقيق مثل هذه الامنية فلم تمض اسابيع قلائل حتى سُم البقاء في دمشق وذهب الى تيمورلنك يستأذنه في العود الى مصر فاذن له وطلب اليه في تلك المقابلة ان يقدم اليه بغلة اذا استطاع فاهداه المؤرخ اياها وبعث اليه تيمورلنك فيها بعد عقب واصله الى مصر. وغادر

(١) ابن اياس في «تاريخ مصر» (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

(٢) ابن عربشاه في كتاب «عجائب المقهور» (مصر) ص ١٢٣

وما بعدها - وراجع كتابي «مصر الاسلامية» ص ١٢١

المؤرخ دمشق في شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها ودهمه اللصوص اثناء الطريق فسلموه ماله ومائةه ولكنه وصل سالما الى القاهرة في اوائل شعبان سنة ثلاث وثمانائة

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطا بنجاته «وحدت الله على الخلاص» ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق يصف هذه الحوادث وما دار بينه وبين تيمورلنك ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

— ٣ —

وما كاد ابن خلدون يستقر في اقااهرة حتى أخذ يسعي للعود الى منصب القضاء. وقد رأينا انه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس في مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ ، وكان ابن خلدون يشعر وهو في ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذي اعتاد أن يتمتع به في جميع علاقته السلطانية ، وكانت المعركة التي تضطرم حول ذلك الكرسي ، والتي شهدنا مظاهرها في تكرار تعيينه وعزله ، تذكي بلاريب في نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسي ، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابدا الى مسند النفوذ والجاه ، ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصري نزيه ثقة في اشارة موجزة اذ يقول لنا في خامسة ترجمته للمؤرخ « رحمه الله ، ما كان أحبه في المنصب » (١) . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ، فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكاتبه في القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا في ركب السلطان الى الشام ، فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للذس في حقه ، وزعم بعضهم انه هلك في حوادث دمشق (٢) . ويريد المؤرخ هنا أن يفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الامر ، فيقول لنا انه على أثر هذا الارجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقحسي (جمادى

الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقحسي ، وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان (١) فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو يفيض بالاحقاد والخصومة ، ولكنه يقول لنا انه لم يحفل كما دت بمصانعة الأكارب وانه استمر كما كان « من اقيام بالحق والاعراض عن الاغراض » .

فاضطرت من حوله الدسائس القديمة ، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب ، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة ، وعزل المؤرخ كرة أخرى في ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤) ، وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب ، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر ان المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة ، وان ابن خلدون عانى من حملات خصومه مالم يعان من قبل ، حتى انه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير ، ووجه اليه كثير من التهم . ويقول لنا ابن حجر والسخاوي في هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له ، وحصل له من الاهانة مالا مزيد عليه » (٢) . وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه ، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر ، وبقي مظهرها التداول على المنصب ، ولكنه انحصر حيننا بين ابن خلدون والبساطي ، مما يدل على ان البساطي كان يمثل الحزب الذي يناوىء المؤرخ في هذا الدور من المعركة . والظاهر أيضا ان ابن خلدون كان يعتمد في مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه ، فانه لم يمض على ولاية البساطي نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذى الحجة ، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في ١٦ ذى الحجة ، واستمر في المنصب عاما وشهرين ، ثم رجحت كفة خصومه ف عزل في السابع من ربيع الاول سنة ست (٨٠٦) ، وأعيد البساطي في الشهر نفسه ، ثم عزل في شهر رجب سنة سبع ، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقحسي فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التتسي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطي في ربيع الاول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد

(١) يذكر ابن خلدون في التعريف أن تعيينه هذه المرة كان في « أواخر شعبان » . ولكن ابن تفرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن اياس انه كان في ١٣ رمضان ، تاريخ مصر ١ ص ٣٣٧ ، (٢) ابن حجر في كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » (مخطوط دار الكتب ١٠٥ تاريخ) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوي في الضوء اللامع .

(١) ابن تفرى بردى في المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١

(٢) « التعريف » في النسخة المخطوطة